المبحث الثالث

النور والظلام

لقد كرهت النفس الإنسانية الظلام، وعملت جاهدة في سبيل إزالته، لذا ذهبت الاكتشافات الكثيرة والكبيرة للقضاء على هذه الظاهرة وذلك باستخدام الضوء – النور – في كل مكان مظلم، أو قريب إلى الظلمة.

لقد ارتبط الظلام بأشياء كثيرة في حياة الإنسان، منها الخوف، والقلق، والجهل، وهو (رمزٌ مستوعبٌ للأسى والحزن والفشل والعبودية والانهيار)[1].

وكما هو معروف أن النور والظلام ثنائية متضادة كما اثبت ذلك القران الكريم: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾[2] ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾[3]. وقد أثبت القران الكريم أيضاً أن الظلام هلاك وجهل وشرك وعذاب، والنور رحمة وعلم وتوحيد واستقرار وفوز ونجاة، فقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[4].

وقد عرّف الدكتور الداهري المكفوف بشكل دقيق بأنه (الذي لا يملك الإحساس بالنور)[5] لذا قد ذهب به حرمانه من الإحساس بالضوء – النور – إلى السمو الذاتي على كل مرفقات الضوء الجمالية ويصير الحديث عن النهار والليل أو النور والظلام حديثاً ذاتياً مملوءاً بالافتراضات والتكهن المصنوع بالمخيلة التي قد لا تتفق مع الواقع[6].

---

(1) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل، الدكتور مصطفى السعدني، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية – مصر: 163.
(2) الرعد: 16.
(3) فاطر: 19 – 20.
(4) البقرة: 257.
(5) سيكلوجية رعاية الكفيف والأصم، الدكتور صالح حسن الداهري، دار صفاء للنشر والتوزيع – عمان، ط1، 2008م: 43.
(6) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 133.

إن عدم إحساس المكفوف بالنور، أدى به إلى القلق، وإن هذا القلق قد خيّم على حياته، وفرض عليه أن يعيش في عالمين: عالم المبصرين، وعالمه الخاص المحدود المظلم. وهو لا يستطيع مجاراة البصر في عالمه، ويطمح في الوقت نفسه إلى الخروج من عالمه الضيق؛ لكنه يجد نفسه عاجزاً عن ذلك، ويتولد في نفسه نوع من الصراع يقوده تارة إلى الخروج من عالمه الضيق، وتارة أخرى يجذبه إلى عالم المبصرين[1].

لذا قد شاعت عند الشاعر المكفوف حالات الاكتئاب والتشاؤم والسوداوية، ولكي يخرج الشاعر نفسه من دائرة اتهامه بالكآبة الناتجة من عماه، نجده كثيراً ما يفلسف كآبته ويجد لها مخارج وتصريفات مسوغاً ذلك بأعذار وأسباب تتعدى حالة عماه[2]، ولكن الباحثة رسمية موسى السقطي ترى أن المكفوف لا يعرف النور والظلام، لذا ترى أن المكفوف يمكنه أن يعيش في الظلام بصورة طبيعية، كما نحن نعيش في النور، (ولولا كلمة الضوء والظلام التي تتكرر في ذهنه، وإشعار الناس إياه أنه يعيش في ظلمة وأنه لا يرى النور. لولا هذا وذاك لظن انه يعيش حياة طبيعية اعتيادية جداً، كما نشعر نحن إننا نعيش في إيجابية تامة)[3].

ولقد وجدت أن الشاعر المكفوف الأندلسي، يضع نفسه في مكان المنازعة ما بين أن يحس، ولا يحس بالنور، وأكدت ذلك أشعارهم الكثيرة في هذا الصدد، فهذا ابن هذيل يطالعنا في ثنائية النور والظلام حين قال في جمال الوجه: **(من الكامل)**

وجه أغرُّ كأنه بدرُ الدُّجى ... فعليه من نور السعود كمال
تتزاحم اللحظات في إشراقه ... فكأنه فوق العيون هلال[4]

(1) ينظر: سيكلوجية رعاية الكفيف والأصم: 45.
(2) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 133 – 134.
(3) أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري: 129.
(4) شعر يحيى بن هذيل: 113.

إن إكثار ابن هذيل من ألفاظ النور في هذين البيتين تجعلنا نشعر بحرمانه منه وتحسره عليه، فلقد أورد عدة ألفاظ مشعة – وجه أغر، بدر الدجى، نور السعود، إشراقه، هلال – ليثبت أنه يرى النور، ويتمتع به، بل إنه يحاول نفي عاهته، ويطمئن نفسه، حتى لا يشعر بخيبة الأمل. لذا وصف ابن هذيل حبيبته بأنها قد شفته، وأسهرت طرفه باللمعان والبرق اللذين كانت تحملهما. وعلى الرغم من الظلام الذي يعتلي شاعرنا إلا أنه وصله شيء من النور في ذلك الظلام المستمر، فجعل رؤيته لها في تلك الظلمة، كأنه زنجي شديد سواد الوجه، شديد بياض الأسنان، لذا هو لا يرى إلا أسنانه. لقوله:

(من الخفيف)

ولقد شفّني وأسهر طرفي ... لمع برقٍ يرف في لمعانه
شمته والظلام يفتر عنه ... كافترار الزنجيّ عن أسنانه[1]

وبعد ذلك يعترف ابن هذيل بأن النور هو الذي يقود الإنسان إلى السلامة، ويدله على الخير والصواب، حتى الحيوانات تهتدي في النور إلى الصيد وفي غيره، لذا قال في كلب:

(من الطويل)

وأغضف يلغي أنفه فكأنما ... يقود به نورٌ من الوحي نيرُ[*]
إذا ألهبته شهوةُ الصيد طامعاً ... رأيت عقيم الريح عنه تقصِّرُ[**][2]

(1) شعر يحيى بن هذيل : 128.
(*) الأغضف: المسترخي الأذن، والمقصود انه يلغي أنفه فلا يحتاج إلى حاسة الشم، فكأنه ملهم. (الصحاح: غضف).
(**) عقيم الريح: الجافة الخالية من الرطوبة والأمطار؛ كناية عن السرعة. (الصحاح: عقم).
(2) شعر يحيى بن هذيل: 87.

جعل ابن هذيل النور يشير إلى الخير ويرمز إليه، والظلام يرمز إلى الشر والهلاك، وفرق بينهما، وعرف أن النور والظلام على طرفي نقيض لا يجتمعان، بل إنه اتخذ من النور زينة وجمالاً للمرأة والمدينة والحياة، فقد قال في مباني الزاهرة:

(من الطويل)

تـرى نورهـا مـن كـل بـابٍ كأنمـا سـنا الشـمس مـن أبوابهـا يتقطـع
ومـــن واقفـــات فـــوقهن أهلَّـــةٌ حنايـا هـي التيجـان أو هـي أبـدعُ
علـى عمـدٍ يـدعوك مـاء صـفائها إليـه فلـولا جمدها كنت تكرع(***)[1]

ويستمر في وصف مدينة الزاهرة التي كانت تعرف بجمال بنائها، وروعة بســـــــــاتينها فقـــــــــال فـــــــــي دكاكينهـــــــــا:

(من الطويل)

كـأن الـدكاكين التـي اتصـلت بهـا صـفائح كـافورٍ تضـيء وتسـطع[2]

وقـال فـي الخمـرة: **(مـن البسيط)**

عقيقـةٌ فـي مهـاةٍ فـي يـدي سـاقي أضـوا مـن البـدر إشـراقاً بإشـراق(*)
إذا تطاطـا لـه الإبريـق تحسـبه مصـلّياً خـرَّ إعظامـاً لخـلاق
قـد نفحـت فيـه روحـاً فهـو مرتحـل مـن النـدامي إذا مـا أمسـك السـاقي[3]

ينهي ابن هذيل هذه الثنائية – النور والظلام – بوصف الخمرة، حين جعلها تحمل ضوء البدر، بل إنه راح يصورها بوقار وإجلال، وربما لمكانتها عنده، فقد

(***) كرع الماء: شربه بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه!. (الصحاح: كرع).
(1) شعر يحيى بن هذيل: 95.
(2) شعر يحيى بن هذيل : 96.
(*) عق البرق، انشق، وعقيقه: شعاعه. (لسان العرب: عقق) ؛ المهاة: كأس البلور. (الصحاح: مها).
(3) شعر يحيى بن هذيل : 107.

جعل إبريقها حين يصب كالمصلي الذي يركع ويسجد لله رب العالمين، ولا شك في أن هذه صورة مشهورة ومعروفة عند المسلمين ولا تشبيه بين حب الخمر وبين حركات المصلي من الناحية العقائدية والتعبدية والاجتماعية.

والشاعر إنما صوّر هذه العلاقة ورسمها مع أنه شاعر مكفوف لأنه أراد أن يسبغ صفات النور والحركة على صورة لتأتي قريبة من صور الشاعر البصير في حسن الرسم، وجودة ربط العلاقات بين أطراف الصورة جميعاً.

إن روعة تصوير الخمرة لم يَأت من فراغ، إذ إن وصفها يدل على أن الشاعر كان محتسياً لها، شاعراً بنشوتها، مستمتعاً بنورها الذي لا يراه إلا من يتعاطاها.

ولم يعرف الشاعر المكفوف النور الحقيقي فحسب، وإنما عرف النور المجازي الذي يكون بمثابة الهداية والحق والنجاة، لذا قال ابن الحناط لأحد ممدوحيه[1]: **(من الطويل)**

وأشرقت الدنيا بنور خليفةٍ ... به لاح بدر الحق بعد أُفولهِ
من الهاشميين الذين بمجدهم ... تعود شخص المجد جر ذيوله
فلا تسأل الأيام عما أتت به ... فما زالت الأيام تأتي بُسوله[2]

إن هذا الإشراق جاء مع الخليفة الذي مدحه ابن الحناط بعد أن كانت الدنيا ظلماء لا نور فيها ولا أمل، ومن الطبيعي أن تأتي مثل هذه الصور مع لوحات المديح وتكثر فيها، سواءٌ أكان ذلك عند الشاعر المكفوف أم عند غيره. وربما كان إكثار الشاعر الأندلسي المكفوف من ألفاظ النور والإشراق وجمعها في بيت واحد على سبيل التميز لرسم ممدوحه، ومجاراة الشاعر المبصر في حسن الرسم وإبراز الممدوح كما يريد الشاعر ويسعى اليه.

(1) هو علي بن حمود الناصر، تسمى بالخلافة مغتصباً لها من بني أمية فمكث عامين غير شهرين، ثم قتله الصقالبة سنة 408هـ. (المغرب: 1/ 122).
(2) الذخيرة: 1: 1/ 350.

إن ابن الحناط يريد أن يثبت لنفسه ولممدوحه أن النور تطمئن به النفوس وتهتدي إليه الأرواح، لذا أكثر منه. عله ينال شيئاً منه. لقوله:

(من الطويل)

ولما أقال الله عثرتك التي قضى الله فيها بالنجاة وقدرا
تمللت الدنيا وأشرق نورها وأقبل سعد كان بالأمس أدبرا[1]

وقد جعل ابن الحناط النور هو الذي يبسط يده لممدوحه. حين قال:

(من الكامل)

والنور يبسط نحو ديمتها يدا أهدى لها ساقي الندى أقداحا[2]

أما أبو الحسن الحصري فقد أكثر من استخدام ثنائية النور والظلام، وقد جعلها تتضمن معاني كثيرة، منها: العدل والظلم، فقد قال في هذا المعنى لأحد ممدوحيه:

(من الطويل)

جلا عدله إظلام كلِّ ظلامة وحاط قناة الدين حفظاً من الخفض
كففت أكف الظلم عن كل مسلم عرضن لمال منه أو دمٍ أو عرض[3]

وقد ضمنها معنى الخير والشر حين قال لأحد ممدوحيه: **(من الكامل)**

سهل الأباطح من علاك يفاع والنجم أنت وكفك المرباع
بل أنت شمس لا تزال ولم يزل في سائر الآفاق منك شعاع[4]

(1) م. ن : 1: 1/ 344.
(2) المغرب: 1: 122.
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني: 120.
(4)أبو الحسن الحصري القيرواني : 122.

فقد جعل ممدوحه مصدراً للنور وليس عاكساً له، إذ جعله كالنجم والشمس، وقد ضمّن الثنائية – النور والظلام – معاني أخرى فيها: العلم والجهل. في قوله:

(من المتدارك)

وذكـــاءٌ مثـــل النـــار جـــلا ظلـــم الشـــبهات توقـــده
وهـــدى فـــي الخيـــر يرغبـــه وتقـــىً فـــي الملـــك يزهـــده[1]

وقد ضمنها معنى الاستئناس والكآبة، حين قال: **(من الطويل)**

ســـويداء قلبـــي للأحبـــة منـــزلٌ وذكـرهم فـي ظلمـة الليـل مؤنسـي[2]

وقد ضمنها معنى الوجود والفراغ، أو الحضور والغياب، أو الحياة والموت أيضـــــــــــــــاً، فـــــــــــــــي قولـــــــــــــــه:

(من الكامل)

لمـــا أتـــوا بـــك حـــائرين كأنمـــا يمشـــون فـــي ظلـــم لـــدفن ضـــياء
صـــلوا عليـــك فوفقـــوا إلا امـــرأً تنحـــل منـــه حبـــأً* لأخـــذ جنـــاء[3]

ولـــــــــــــــه فـــــــــــــــي نفســـــــــــــــه:

(من المجتث)

يـــــا نـــــور عينـــــي فقدتـــــه وفـــــي الفـــــؤاد وجدتـــــه
يـــــا كوكبـــــاً لقبـــــوني بالبـــــدر يـــــوم ولدتـــــه
لـــــم يهـــــدِ ركبـــــي ســـــناه حتـــــى خبـــــا فلحدتـــــه[4]

(1) م. ن: 145.
(2) م. ن: 223.
(*) جمع حبوة: ما يشتمل به كالثوب ونحوه. والمقصود أن هذا الشخص يفتح ثوبه لأخذ العطايا؛ كناية عن طمعه وجشعه. (الصحاح: حبا).
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني: 276.
(4) أبو الحسن الحصري القيرواني : 284.

وضمن الثنائية – النور والظلام – معنى الإبصار والعمى.

حين قال: **(من الخفيف)**

كـــان عبـــد الغنـــي للعـــين نـــورا ولقلبـــي هـــدى وللعـــيش طيبـــا
كـــان شـــيبي بـــه شـــباباً فلمـــا بـــان عنِّـــي ردَّ الشـــباب مشـــيبا[1]

وضمنها معنى الفخر والخذلان، حين قال: **(من مجزوء الوافر)**

كـــان ســـراج قـــومٍ هـــم فويـــق ســـروجهم ســـرج
فأطفـــأه الـــردى ومضـــى صـــباحٌ كـــان ينـــبلج[2]

وضمنها حسن الظن وخيبة الأمل. حين قال: **(من الوافر)**

ســـلام الله والصـــلوات تتـــرى علـــى قمـــرٍ أنـــار بـــه الضـــريح
علـــى زهـــرٍ أنـــارت منـــه أرضٌ تهـــب لـــه مـــن الفـــردوس ريـــح
فـــنم علـــى الثـــرى طيـــب يفـــوح ونـــورٌ مـــن محاســـنه يلـــوح[3]

ولـه فـي المعنـى نفسـه: **(من مخلع البسيط)**

أي هـــلالٍ أنـــار ليلـــي كـــان الســـنى فيـــه والســـناء[4]

ولـه فـي المعنـى نفسـه ايضـاً: **(من مخلع البسيط)**

جـــنَّ علـــيَّ الظـــلام صـــبحاً وإنمـــا كنـــت لـــي ســـراجا[1]

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 278.
(2) م. ن : 296.
(3) م. ن: 301.
(4) م. ن: 457.

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 461.

وضمنها معنى أو صورة الماضي والمستقبل، حين قال: **(من المديد)**

كـــن غـــداً نـــور الشـــقي إذا مـــا ســـعى نـــور الألـــى ســـعدوا[1]

وضـمنها أيضـاً معنـى النجـاة والهـلاك، حـين قـال: **(مـن الخفيف)**

يـــا هـــلالاً متـــى ذكـــرت ســـناه يتنـــاثر مـــن لؤلـــؤ الـــدمع ســـلك

ظلمـــة القبـــر مـــن محيـــاك نـــورٌ وثـــراه مـــن طيـــب ريـــاه مســـك[2]

وقد ضمنها أيضاً معنى السعادة والحزن، حين قال: **(من الطويل)**

إلى أي ضوءٍ من بروق المنى تعشو ألا وغيـث الصـوادي سـار منـك بـه نعـشُ

عميـــت عـــين الزمـــان فـــلا هـــدىً وشلّت يمين المجد منك فلا بطشُ[3]

لم يكن دعاء الحصري على الزمان بالعمى إلا لأنه يعرف معنى العمى، الذي يولد الظلام، ويكون هذا الظلام بمثابة الموت لديه، لذا جاء بهذا الدعاء لشناعته وسوء عاقبته.

هذه المعاني كلها ضمنها الحصري في ثنائية النور والظلام، وكأنه يريد أن يثبت أن الحياة قائمة عليها، فهي تمثل الأمل واليأس، الحياة والموت، العلم والجهل، الماضي والمستقبل...إلخ.

فهذه الصور التي وردت في أبيات الحصري ترمز إلى شيء واحد هو عدم تمتعه بالنور والالتذاذ باستخدامه، وفقدان النور له يعني الموت وخيبة الأمل، وانقطاع الرجاء من كل شيء جميل بهي في حياة الكفيف.

أما الأعمى التطيلي فلم يختلف كثيراً عن قرينه – الحصري – فقد أورد معاني كثيرة في هذه الثنائية؛ ولكن أغلبها في المديح.

---

(1) م. ن: 310.
(2) م. ن: 351.
(3)أبو الحسن الحصري القيرواني : 428.

فقد قال وهو يمتدح احدهم: **(من الوافر)**

يؤرقـــه بعـــادك كـــل ليـــلٍ تـــوهم طـــول زفرتـــه فطـــالا
كـــأن نجومـــه أقـــداح شـــربٍ إذا زيـــدت هـــدى زادت ضـــلالا[1]

إن ظلمة الليل طالت على التطيلي بعد فراق ممدوحه، لذا راح يتأمل نجومه التي كانت كأقداح الشراب الناصعة المضيئة، وكلما زادت شراباً زادت إضاءةً.

ويتمنى التطيلي لممدوحه الدوام والسعادة، لقوله: **(من البسيط)**

ودم شـــهاباً بـــأفق الســـعد متقـــداً إذا رقـــى مســـترق الســـمع بحرقـــه[2]

ويستمر التطيلي في مدحه جاعلاً منه متنفساً من ضيق عاهته، وجسراً مع مجتمعـــــه. وقـــــد وصـــــف التطيلـــــي عتمـــــة الليـــــل بقولـــــه: **(من الطويل)**

وجـــنح ظـــلامٍ لـــو تثـــار عجاجـــةٌ لمـــا لمعـــت فيهـــا الســـيوف البواتـــك[*]
دجىً لو سرت فيها الشياطين ترتقي إلـى السر لـم تخلص إليها النيـازك[3]

يبدو أن هذا الليل ذو ظلمة شديدة على الشاعر، وهذا طبيعي فقد اجتمعت على الشاعر ظلمتان، ظلمة الليل وظلمة العمى، لذا جاء بهذه الصورة الشديدة العتمة. وقد ضمّن التطيلي النور معنى العلم والرفعة، حين قال: **(من الكامل)**

نـــورٌ رفعـــت لـــه منـــار بلاغتـــي فمشـت علـى سـنن الطريـق الأقـوم[4]

(1) ديوان الأعمى التطيلي: 243.
(2) م. ن: 239.
(*) البواتك: القواطع. (لسان العرب: بتك).
(3) ديوان الأعمى التطيلي: 89 – 90.
(4) م. ن: 171.

وبعد ذلك يأتي إلى المبالغة أو الغلو لممدوحه حين قال في جيشه: **(من الوافر)**

وجـــيشٍ لا يضـــيء الصـــبح منـــه مخافــــة أن تنــــوره العيــــون(1)

بل إنه جعل ممدوحه ينير الأجواء ويجلو الظلام حين يبتسم. لقوله:

(من البسيط)

إذا تبســــم والظلمـــــاء عاكفــــةٌ فـــالبرق مـــن ثغـــره يبـــدو تألفـــه(2)

ويصل معنا الأعمى التطيلي إلى عدم التفريق بين النور والظلام، أو الليل والنهـــــــــــــار لمــــــــــــــا قــــــــــــــال:

(من البسيط)

لمـــا التقينـــا وقـــد قيـــل المســـاء دنـــا وغابـت الشـمس أو كـادت ولـم تغـبِ(3)

إن جدار العتمة الذي يقف حائلاً بين التطيلي وبين الضوء، يجسد الضيق النفسي الذي يلازمه في أبياته.

إن التطيلي لم يتعرف إلى دنو المساء إلا من أقوال الناس: (وقد قيل المساء دنا) وصعوبة التمييز عند التطيلي جعلت الأمور مختلطة عليه: (وغابت الشمس أو كادت ولم تغب). ويرى الدكتور يوسف عيد أن أغلب قصائد التطيلي خالية من الأضواء، والألوان وهي أشبه بشريط سينمائي وصلنا باللونين الأسود والأبيض، وأنها رمادية اللون، باهتة، أقرب إلى العتمة منها إلى النور، تماماً كالطريق التي يتلمس معالمها بعصاه(4).

---

(1) م. ن: 202.
(2) ديوان الأعمى التطيلي: 237.
(3) استدراكات على ديوان الأعمى التطيلي، د. محمد مجيد السعيد، مجلة المورد، ع: 2، مج: 6، 1977م: 303.
(4) دفاتر أندلسية: 243.

وإني أرى مبالغة كبيرة في كلام الدكتور عيد السابق، فالشاعر لا يرى كما يرى الناس، ثم إن الأعمى التطيلي مصورٌ بارعٌ، والألوان الأخرى جاءت كثيراً في شعره. وربما أعجبته إحدى الصور فكررها أكثر من مرة وهذا لا يعني أنها رمادية باهته بلا شعور أو خيال.

أما أبو القاسم السهيلي فقد جعل النور راحة وهدوءاً واستقراراً، وجعل المساء والليل والظلام نكداً وهموماً، في قوله: **(من الطويل)**

طلعت وأفقي مظلم لفراقكم فخلتك بدراً والمساء همومي[1]

فقد ابتدأ ابن جابر هذه الثنائية، بأجمل شيء حين ضمن معاني النور للنبي محمد (ﷺ) الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه.

قال في نور النبي (ﷺ) وهو يضاهي نور الصباح ويطغى عليه: **(من البسيط)**

قل للصباح إذا ما لاح نورهم إن كان عندك هذا النور فابتسم

إذا بدا البدر تحت الليل قلت له: أأنت يا بدر أم مرأى وجوههم[2]

لقد أخرج ابن جابر هذا الكلام مخرج المبالغة، فالصباح عنده لا يقدر أن يضاهي نورهم إذا ابتسم.

وقال أيضاً عن جمال محمد ونوره (ﷺ): **(من البسيط)**

كأنما الشمس تحت الغيم غرته في النقع حيث وجوه الاسد كالحمم[3]

لقد جعل ابن جابر بمخيلته الشمس مصدر النور، بين الغيوم ليكون المنظر أحلى، والإشعاع أجمل، ليوافق جمال النبي محمد (ﷺ).

(1) نفح الطيب: 3: 401.
(2) الحلة السيرا: 143 – 144.
(3) الحلة السيرا : 98.

ولقد شعر ابن جابر بنور قلبه وعينه حين أحب رسول الله (ﷺ)في قوله:

(من البسيط)

فـي القلـب مـن حـبكم بـدرٌ أقـام بـه فـالطرف يبصـر نـوراً حـين يبصـره
تشـابه العقـد حسـنا فـوق لبتـه* والثغـر نظمـاً إذا مـا لاح جـوهره[1]

وقد صوّر لنا ابن جابر حال الجاهلية القديمة وكيف كانت منغمسة في الشرك والظلام، فأخرجها الرسول(ﷺ) إلى النور. في قوله: **(من البسيط)**

جـاء وليـل الظـلام داجٍ فأصـبح الحـق قـد أضـاء
كـم خـائف قـد أنـال أمنـاً كـم قـد شـفى للـذنوب داء[2]

ويكرر المعنى نفسه، في قوله: **(من الطويل)**

فمبعثـه نـورٌ وللخلـق رحمـةٌ فقد قصّرت في الفضل عنه المباحث[3]

ويستمر في حبه للرسول محمد (ﷺ) وهو يمدحه، ويجل مكانته، بكل ما يمتلك من معانٍ وألفاظ، ليزينها بأرق وأعطر الأفكار. في مثل قوله: **(من الرمل)**

أشـرقت مـن نـوره الأرض لنـا فكـأن الليـل صـبح قـد بـدا[4]

(*) موضع القلادة من العنق. (لسان العرب: لبب).
(1) شعر ابن جابر: 69.
(2) نظم العقدين: 31.
(3) نظم العقدين: 113.
(4) نظم العقدين : 199.

بل إنه جعل وجهه يضيء في الليلة الظلماء، في قوله: **(من المتقارب)**

يلوح لنا في الدجى وجهه فتبصر في الليل صبحاً منيرا[1]

(1) م. ن: 221.

وقد أثبت ابن جابر للرسول (ﷺ) النور الدائم، والبركة التي لا تنفد، في قوله:
(من الطويل)

تضـــيء ظــلام الليــل أنــوار وجهــه   وإن أقحطـوا يستدفعون بـه القحطـا[1]

ولم يكتف بنور الرسول (ﷺ) بل جعله موصولاً لأصحابه (رضوان الله عليهم) فـــي قولـــه:

(من البسيط)

تضـــيء أحســابهم لــيلاً وأوجههــم   كأنمـــا فـــي الـــدجى مـــنهم قناديـــل[2]

وأما بشأن الليل وظلمته عند ابن جابر، فقد اتخذ جانبين: الأول: كرهه له، حين ارتبط بالملل والطول، كما كرهه الشعراء المكفوفون من قبله، فهو يتمنى إزالته وذهابـــه، لقولـــه:

(من البسيط)

أقـول: (يـا لـك مـن ليـل)[*] وأنشـدُهُ   بيت ابن حجرٍ وفجري غير مبتسم[3]

ومن جانب آخر أحب ابن جابر الليل؛ لأنه حوى الحب والسمر، بل إن الظلمة لديه قد يكون لها طعم خاص يوصله إلى الإشباع، لقوله: **(من المتقارب)**

فقالـــت تمتـــع بوصـــلي وعنـــدي   نهـــــــودٌ لـــــــك الآن أهــــــديها

(1) م. ن: 316.
(2) نظم العقدين: 435.
(*) قال امرؤ القيس:
فيالـــك مـــن ليـــلٍ كـــأنَّ نجومَـــهُ   بكـــلّ مُغـــارِ الفتْـــل شُـــدَّتْ بِيَـــذْبُل
(ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط4، 1984م : 19).
(3) الحلة السيرا: 79.

فقبلـــت فاهـــا علـــى خلـــوةٍ ولـــم يعـــرف الأمـــر وآشـــيها
وعانقتهـــا تحـــت بـــرد الظـــلام وأشـــــياء إنـــــي لأُخفيهـــــا
مـــا هـــو عيـــبٌ ولكنـــه مـــن الصـــون أن لســـت أبـــديها
فـــنعم الليـــالي بتلـــك الـــديار فكـــل المنـــى فـــي لياليهـــا[1]

هذه الأوصاف والمسميات كلها جاءت في أشعار المكفوفين. وكلها اختصت أو تحدثت عن ثنائية النور والظلام في تلك الأشعار ورأيت الشاعر الأندلسي المكفوف يكثر من أوصاف النور ويتحدث عن الإشراق، والسطوع واللمعان. مرة في المديح ومرة في مديح الرسول (ﷺ) وكلها جاءت لتبين عن حالة نفسية متأزمة حاولت الخروج من عاهة العمى، ومشاكلة الشاعر المبصر فيما يرى ويصف. فجاءت تلك الأشعار من الإتقان ومن التعبير عن حالات الشاعر المكفوف النفسية التي يمر بها في مراحل حياته المختلفة، بحلوها ومرها، بجمالها وصفوها وبانتكاساتها.

(1) ديوان المقصد الصالح: 344.